كيف أصبحت كاتبا ؟

سنوات التكوين

3-2

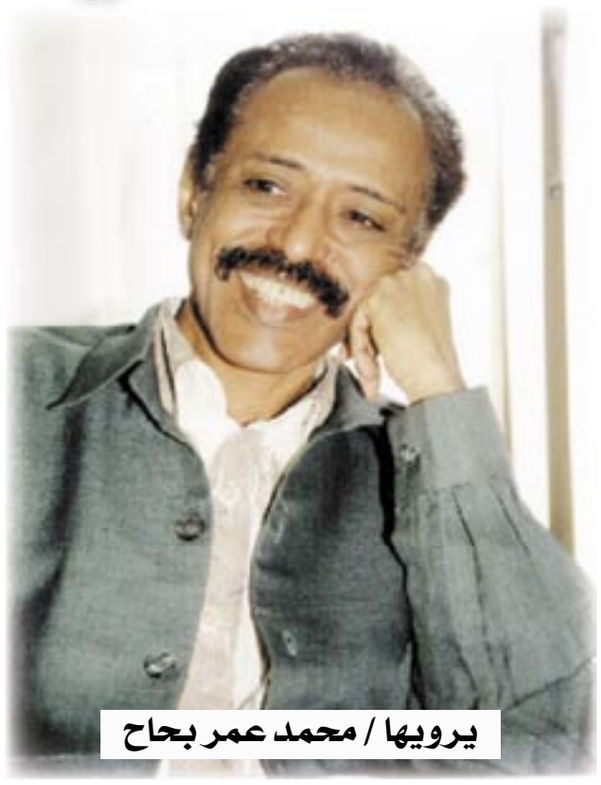

يرويها / محمد عمر بحاح

قريتنا - الديس - جزيرة وسط بحر من نخيل

ذات قرن ، ذات بحر ، عندما حملت القوافل الحضرمية ، إلى كل الجهات، كل القارات ، صرت أنا نسل ذلك الحضرمي نتاج ثقافتين متجاورتين ثقافة يمنية عربية ، وثقافة أفريقية عربية ، ونتاج كل الثقافات .

فقد ولدت ذات مساء ، في قرية على الساحل الأفريقيي ، تدحرجت من البحر " اللازوردي " تسمى " حيس " في عام شهد مجاعة شديدة ، إلى درجة أن أبي أخبرني بعد ذلك بسنين ، أن الناس اضطروا إلى أكل لحوم القطط ! ولم أر هذه القرية بعدها قط .

ولدت لأبوين عربيين من حضرموت ، فأبي ينتمي إلى بيت البحاح في الديس الشرقية ، بينما أمي إلى آل باشطح في غيل باوزير ، وكلتاهما تقعان في حضرموت الساحل ، أو ما كان يعرف حينذاك بالسلطنة القعيطية .

ذات يوم ، حملت الهجرة أبي ، في سفينة شراعية مقتفياً أجداده الحضارم الذين يتبعوا من هجرتهم منذ الأزل ، فرست به في أفريقيا ، وقبلها بسنوات سبقه جدي لأمي فرست به سفينة مماثلة بين فخذين من أبنوس ، فيتزوج المرأة التي ستصبح جدتي ، وينجب منها تلك التي سيتزوج بها أبي ، والتي أصبحت أمي .

حملت السفن الحضارم إلى جاوه ، وإلى أفريقيا ، وإلى الأطلسي ، وإلى كل مكان في أشتات الدنيا فيه بيع وشراء ، وفيه نساء ، ومع التجارة نشروا الاسلام ، وأخذوا يتناسلون .

هكذا نسج القدر أولى خيوط لحياتي، وتلا أبي " قصيدته الحضرمية " فولدت له أمي قمرا اسماه محمد ا.

جدي وجدتي كانا منهلي الأول إلى عالم القص والخرافة وكتبت قصصي الأولى من وحي خرافتهما

عشت عالم نجيب محفوظ وتحولات القاهرة والطبقة المصرية الوسطى

المكلا

كل هذا كانت تزخر به عدن، كما كانت تمور بالإضرابات والمظاهرات.. وتتلقف أصداء الثورات والانقلابات المتتالية في أكثر من مكان في الوطن العربي.

وذات خميس، خرج المارد من قمقمه معلناً ثورة السلال.. في الشمال .. على الملكية.

وبعد عام، أعلن الجنوب ثورته من ذرى ردفان، ولم تعد الأيام كسائر الأيام .. بالنسبة للانجليز.

لحظتها قرر الحضرمي أبي، انه الوقت المناسب لاكمال رحلتنا إلى حضرموت فأدركنا أن عدن التي بالكاد عرفناها ، لم تكن سوى محطة عبور "مؤقت" حيث حملتنا سفينة شراعية إلى "المكلا" ، ومنها بسيارة شحن إلى الديس الشرقية.

حضرموت بحر من مدى أزرق، وبحر من نخيل وبحر من الأحلام التي لا تتحقق، وحضرموت فردوس مفقود، بحثا عن فراديس بعيدة، ويوم يكتشف الحضرمي انها "شيطانة الفراديس" ولا فردوس سواها، يتذرع بالعودة، وحين يجد فردوسه القديم ينأى، يسافر مع أول الراحلين بحثا عن فردوس جديد لم يكتشفه احد بعد.. وهكذا منذ الأزل.

وحضرموت تاريخ وحضارة، وفن لكنها لاتزال تنحت حضارتها في الوادي وتسكن بيوت الطين.

كانت جدتي لابي ، قد ماتت فلم يرها أبي للمرة الأخيرة .. أما أنا فقد رأيتها في زيارة سابقة للمرة الأولى والأخيرة، ولم يرها اخوتي الذين جاءوا معي قط .. وقد افتقدتها كثيراً، إذ كانت مخلوقة من الطين ومعجونة من الطيبة.

وكان جدي لايزال يبيض جدار البيت بالجير (النورة) عندما دلفنا من السدة.

وكان نساء كثيرات بينهن خالتي واختي وعماتي والجيران يفضن الصمت بزغاريد الاستقبال ، وعيونهن تتحسس أجسامنا الصغيرة من خلف غلالات سوداء.

هذا هو عالمي الجديد، الذي كان على الطفل الذي كنته، والذي لم يكبر بعد ان يحبه، ويتكيف معه.. ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فجأة تركت ورائي مرابع طفولتي، وأصدقاء صباي، وأهلي الذين أحبهم ذلك الجزء الغالي من نفسي. ها آنذا مزروع في عالم آخر، لا أعرف عنه شيئاً، ولكنه وطن أبي، وهو الآن وطني الذي علي أن أحبه، لا أن اتكيف معه فقط، وهؤلاء هم الجزء الآخر من أهلي.

وحضرموت ساحل وداخل، حضرموت اجترحت بحرا وسهلا وجبلا.

أما قريتنا الديس فجزيرة "وسط بحر من نخيل، وعيون كبريتية ساخنة، وشفاه تحتسي القهوة المرة، وتقبل الأقداح التي يرشفها رجل ما في مكان بعيد.

وأنا القادم من ذلك البعيد، الذي ترك جزء من روحه ونفسه هناك، اشتاق إلى مراحل انقطعت من عمري تركتها ورائي ، لكنها ماتزال تسكن في داخلي، في قلبي وعقلي ووجداني، وهذه الديس عليها ان تحنو على الطفل الذي كنته، وعليها أن تثبت انها وطني، وان أيامي قد بدأت الآن فقط..

بالتأكيد سوف التحق بمرحلة تعليمية أعلى، لكن المدرسة رغم تفوقي الدراسي ، ليست ما يشبع نهمي.

جدتي، منهلي الأول إلى عالم القص والخرافة بعيدة عني، هناك في أفريقيا مع خرافها وأبقارها وحكاياها الأسطورية..

وجدي، منهلي الآخر، العارم بالقصص والأساطير ينام في قبره الموحش، ويرتل فاتحته، ليرى الفردوس الأبدي، بعد أن فقد الأمل في كل فردوس آخر..

ولي جدة ماتت هنا، لم أرها إلا مرة واحدة، وجد صارم يوقظنا للصلاة فجرا، ولا يسمح لنا بتناول الطعام ما لم يرنا نصلي معه في المسجد، ولا أمل لي في ان يحكي لي ولو نصف حكاية.

ولي أخ يكبرني، سيأتي الفرج على يديه من جديد سيهيئ لي القرار منهلاً جديداً إلى ذلك العالم الذي انقطعت عنه، انه أخي محفوظ ، ومكتبته العامرة بمئات الكتب، في الشعر، والقصة، والرواية، والسياسة ، بالإضافة إلى عشرات الدوريات والصحف، انه كنز لي لا يقدر بثمن، وكان أخي هذا قارئاً نهما لا يفوت كتاباً جديداً إلا ويقتنيه.

وقد رايته يقرأ كتاباً بين زبون وزبون، في الدكان الذي يعمل فيه في حافة الهاشمي بالشيخ عثمان .. وقد أخذني إلى السوق، وأسواق عدن يومها، تمتلىء بكل أصناف البضائع في الدنيا ، وفيها الكثير يزغلل عيني طفل في عمري.. لكنه من بين كل الأشياء ، الملابس، والأحذية، واللعب لا يشتري لي إلا كتابين مازلت أذكرهما هما: "فلسفة الثورة" لجمال عبدالناصر و "الزحف المقدس" لكاتب لا تسعفني الذاكرة الآن بتذكر اسمه، ولا أظن انني في سني تلك فهمت الكثير منهما . غير اني أعجبت بفلسفة الثورة لعمقه وجمال أسلوبه.

من أخي هذا انتقلت إلي عدوى القراءة، هنا ستصبح القراءة عشقي الجديد الذي لن أجد فكاكاً منه.

وبدل الأدب الشفهي الذي فتنت به، فإن الأدب المكتوب سيصير فتنتي الجديدة، بكل ما يحويه من عوالم واقعية وخيالية وسحرية وأسطورية، وما يموج به من وقائع، وأحداث وأمكنة وأبطال وشخوص.

إنه عالم كل ما فيه ساحر ومدهش بالنسبة لصبي مثلي، فصار مهوساً بهذا العالم إلى درجة الانصهار معه، كأنه جزء منه، وكم أدرك اليوم، ان تلك المرحلة كانت إلى جانب المراحل الأخرى التي تحدثت عنها، وماتزال الدعامة التي اسست عليها ولوجي إلى عالم القص، والمعمار الذي سوف اتكئ عليه لزمن طويل لتفعيل ذلك الفراس. وأشعر اليوم انني لم أكن لأخطو خطوة واحدة، نحو عالم الكتابة لولا مكتبة أخي تلك، وحكايا جدي وجدتي.

هنا، سأعيش مع نجيب محفوظ رواياته وعالمه السردي الرائع، عن تحولات القاهرة والمجتمع والطبقة الوسطى المصرية ، ان محفوظ هو نحات الرواية المصرية بدون منازع، سأقرأ الثلاثية بين القصرين، قصر الشوق، والسكرية. وعدداً من رواياته الأخرى: القاهرة الجديدة، السقامات، الشحاذ، والطريق ..الخ وسوف يحدث في نفسي تأثيرا عميقا.

وهنا سأقرأ لأول مرة "الأيام" لعميد الأدب العربي طه حسين و "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، و "سارة" لعباس محمود العقاد. ومن رواياتهم تعرفت على نوع آخر من القص، ومن السرد، ومن اللغة وتعدد مسارات السرد من كاتب إلى آخر.

وهنا، في مكتبة أخي سألتقي باحسان عبدالقدوس ورواياته في بيتنا رجل، لا تطفئ الشمس، أنا حرة، النظارة السوداء، البنات والصيف، الوسادة الخالية، ثقوب في الثوب الأسود. ومن عالمه الروائي تعرفت على نوع آخر من الرواية وتلك النزعة المنحازة إلى حرية المرأة.

وسحرني محمد عبدالحليم عبدالله ويوسف السباعي بنزهتهما الرومانسية دون أن يكون لذلك السحر نهاية، لانني سوف اتعرف في كل يوم ومع كل كتاب أقرأه على عالم آخر مختلف وأساليب جديدة في السرد والمعمار الروائي، والمصائر التي يؤل إليها أبطال هذه الروايات.

وسينضم إلى هذا العالم جرجي زيدان ورواياته التاريخية ومحمود تيمور، ويوسف الشاروني، ويوسف ادريس وأبطاله القادمون من القرية، كما اني سوف أقرأ ليحيى حقي وجبران خليل جبران وعلي احمد باكثير، وسواهم.

وسوف تتسع القائمة، فينضم إليها كتاب أجانب روس وفرنسيون وانجليز وامريكان ويونانيون من الكتاب العالميين المرموقين في عالم الرواية.

تولستوي ديستوفسكي، تشيخوف ، باستيرناك، شولوكوف، جوركي، وبوشكين من الروس.

ومن الفرنسيين: البيركامو، فولتير، هوجو ، مارسيل بروست، وسارتر ، وسيمون دي بوفوار.

ومن الانجليز: شكسبير جورج أويل، آلن اسكندر.

ومن الامريكان: همنجواي ، وجون تشابنيك،.

ومن اليونان: هوميروس، ودانتي الإيطالي.

ولكل من هؤلاء موهبة خارقة في السرد الروائي، انهم كتاب عظام بحق وقد نقلوا إلينا عوالمهم وأبطالهم حتى صاروا قريبين إلينا بحق، وكنت أعيش معهم، أو يعيشون معي يشاركونني غرفتي تلك في الدور العلوي، حيث مكتبة أخي، التي اتخذتها صومعة لي .. اسمع أصوات أنفاسهم واحس انفعالاتهم كأنهم يخرجون من الورق، ويغادرون دفاف الكتب ليشيعوا سحرهم أحياء، في تصوير درامي حي وجميل.

إن مكتبة أخي تضم شتى أصناف الكتب. فمن قراءتي لتلك الروايات العظيمة ، لكتاب عظام .. عرب وأجانب .. إلى قراءة قصص اللص الظريف ارسين لوبين، ورويات اجاتا كريستي البوليسية.

وكان للشعر نصيبه الأوفر أيضاً المتنبي العظيم، والمعري، وامرؤ القيس، وعنترة، شوقي وحافظ إبراهيم، الرصافي والجواهري، جبران، ونعيمة، والاخطل الصغير، وإيليا أبو ماضي ، نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي، فدوى وإبراهيم طوقان، صلاح عبدالصبور، عبدالمعطي حجازي، نجيب سرور، وأمل دنقل وعمر أبو ريشة، وعلي الجندي، ونزار قباني.. ومن الأجانب بوشكين ورامبو وطاغور، وعمر الخيام ومحمد إقبال واليوت.

لقد زادت معرفتي بعالم القص والرواية والشعر، والفضل لأخي محفوظ ومكتبته .. شكراً له ولكتبه فقد فهمت كنه عوالم مدهشة لم أكن لأفهمها على ذلك النحو لولاه.

انني ممتن له.. لانه عرفني إلى كتاب عظام، عشت معهم عن قرب، ان هذه المرحلة فاصل مهم في حياتي وسرعان ما سوف تتحول إلى لغة وثقافة، وقصص، وأحداث وبطولات إلى فكر وواقع وخيال، لكن أوان ذلك لم يحن بعد، بل سوف ينضج تدريجياً على نار هادئة بمزيد من القراءة والفهم والاستيعاب للواقع العنيد واكتساب الثقة في النفس.

لا اذكر على وجه الدقة متى كتبت أول نص قصصي فلا يصبح المرء كاتباً بين ليلة وضحاها ولا يصبح كاتباً لمجرد أن يقول سأكون كاتباً، انها عملية طويلة ومعقدة انها عملية تتطلب الموهبة، ولكنها أيضاً تتطلب اللغة ، ورص الكلمات إلى جانب بعضها البعض لتصبح جملة رائدة، وتحتاج إلى المعرفة بمعنى أن تعرف معنى الكلمات وتوظيفها في مكانها المناسب، ولابد من تحديد الموضوع الذي ستكتب عنه بدقة. والأمر يتطلب ابتكار اللغة وصياغة لغة جديدة وجمل جديدة ولابد ان يكون هناك داع للكتابة، وإلا فلا داعي لها. وعلى الكاتب ان يتمتع بذاكرة حديدية ليس لتذكر الوقائع والأمكنة والأحداث والأبطال الذين هم جميعاً مسرح رواياته أو عمله الإبداعي، بل عليه أن يتذكر عملية مواصلة الكلمات والجمل والتعابير والتراكيب النحوية والظواهر اللغوية وأن تسعفه اللغة أو عملية الكتابة في استخدام المفردات المناسبة، سواء خلال عملية السرد أو خلال الحوار أو خلال التداعيات الداخلية والنفسية للأبطال والشخوص الروائية، وكل هذا لا يتكون في لحظة واحدة، بل خلال مراحل كتابة النص، سواء كان قصة أو رواية أو قصيدة أو حتى كتابة مقال، انها عملية تستمر العمر كله.

إن النص يأتي بنفسه من ناحية، ومن ناحية أخرى يضعه كاتبه خلال عملية الخلق أو الإبداع للنص شعراً كان أم نثراً، رواية أو قصيدة أو قصة.

يتبع

شكسبير

احسان عبد القدوس

نجيب محفوظ

المكلا

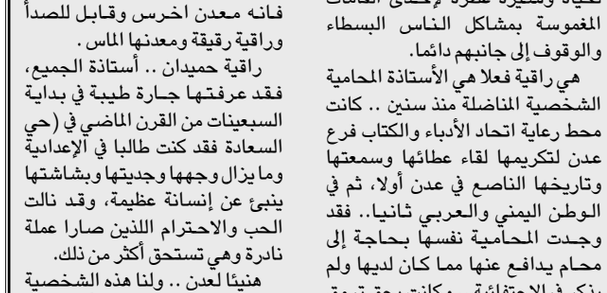

المكلا

راقية .. وجه عدن الجميل

تكريم راقية حميدان

راقية حميدان

نعمان الحكيم

الخميس .. كان يوما مميزا أكثر مما نعرفه عن تميزه في حياتنا هنا في عدن ثم الوطن والوطن العربي عموماً .. هذا التميز كان قد شهد حدثا مهما، ربما هو توارد صدف أو هي توأمة شهدتها قاعة كلية الآداب في جامعة عدن الشهر المنصرم.

الأستاذ الدكتور الباحث مبارك سالمين الشاعر الودود، الخلوق المثقف الهادئ الرصين، رئيس فرع اتحاد الأدباء والكتاب في عدن قال لي الأربعاء : لم أكن اعرف أن الخميس سيصادف يوم ختام فعاليات اتحادنا .. وربما تكون الصدفة قد سجلت سابقة توافقية لم يعلم بها احد .. إلا هيّ انه يوم ميلادها .. ويا محلى الصدف!

تقاطر عدد ليس بكثير، لكنه كان نوعيا ويعبر عن مكانة هذه الشخصية التي شاركوها التكريم.. كانت الكلمات معبرة ومؤثرة، وهي تعبير عن سرد لحياة وسيرة عطرة لإحدى القامات المغموسة بمشاكل الناس البسطاء والوقوف إلى جانبهم دائما.

هي راقية فعلا هي الأستاذة المحامية الشخصية المناضلة منذ سنين .. كانت محط رعاية اتحاد الأدباء والكتاب فرع عدن لتكريمها لقاء عطائها وسمعتها وتاريخها الناصع في عدن أولا، ثم في الوطن اليمني والعربي ثانيا.. فقد وجدت المحامية نفسها بحاجة إلى محام يدافع عنها مما كان لديها ولم يذكر في الاحتفائية .. وكانت بحق ترمق المتحدثين بحنان وابتسامة حتى تسلمها درع الاتحاد وهدايا المحبين والمحتفين بها.

راقية حميدان .. وجه عدن الجميل، تاريخ يتعاظم للمرأة التي وصفت بـ (الحديدية) لكنها ليست إلا المرأة الحقانية المنصفة، المحبة لناسها وعملها ووطنها، أما الحديد فانه معدن اخرس وقابل للصدأ وراقية رقيقة ومعدنها الماس .

راقية حميدان .. أستاذة الجميع، فقد عرفتها جارة طيبة في بداية السبعينات من القرن الماضي في (حي السعادة فقد كنت طالبا في الإعدادية وما يزال وجهها وجديتها وبشاشتها ينبئ عن إنسانة عظيمة، وقد نالت الحب والاحترام اللذين صارا عملة نادرة وهي تستحق أكثر من ذلك.

هنيئا لعدن .. ولنا هذه الشخصية العظيمة، ولليمن الفخر أن تنتمي راقية إليه .. فهل يتم تقدير ذلك رسميا ليحتفي بها الوطن عموما وعن قريب!.